الفصل الرابع

الهدف من دراسة التراث العربي المسيحي

من مقالات للاب سمير خليل اليسوعي مجلة "صديق الكاهن" ١٩٨٣ ومجلة المسرة ٧٦ سنة ١٩٩٠ ص ١٦٠-١٦٤

ان التراث العربي المسيحي واسع جدا، كما قلنا في البداية، اذ يتضمن عشرات الآلاف من المؤلفات. وهناك سببان يدفعان الى دراسة هذا التراث، او هدفان يحثان على احيائه:

الهدف الاول: اجتماعي – ثقافي

١– مشكلة اجتماعية دينية: تمييز العروبة عن الاسلام

يقول احيانا بعض مواطنينا من المسلمين: "ان الحضارة العربية تعني الحضارة الاسلامية". او "ان العروبة والاسلام شيء واحد!"، وربما اعتبر بعضهم المسيحيين دُخلاء على هذه البلاد، او اجانب، او غير عرب. وقد يوافقهم للاسف كثير من المسيحيين، ويرفضون القول بانهم عرب، فيلجأون الى القوميات الاخرى (القبطية والاشورية والمارونية الخ.). وكأن العروبة ترتبط بدين ما، او كأنها مفهوم عرقي "عصبي" (حسب تعبير ابن خلدون). فان هؤلاء ينسون او يتناسون ان المسيحيين في بلادنا كانوا عربا قبل نشأة الاسلام، وان غير العرب منهم استعربوا منذ الف سنة، كما استعرب اخوتهم المسلمون في بلادنا. فالعروبة لا تشير الى جنس او عرف، ولا تشير الى دين؛ وانما تشير الى ثقافة وحضارة مشتركة وتاريخ مشترك ومصير مشترك.

واذا بحثنا الموضوع بحثا موضوعيا وجدنا ان هناك فرقا شاسعا بين العروبة والاسلام، فمن ناحية تلاحظ ان الاغلبية الساحقة من المسلمين هم من غير العرب، اذ ان المسلمين العرب قلة بين مسلمي العالم، حسب تقدير المسلمين، وان اكبر الدول الاسلامية عددا هي دول غير عربية، امثال اندونيسيا وبنغلاديش والباكستان والهند، فلا يمكننا اذا ان نساوي بين الاسلام والعروبة، ومن ناحية اخرى لا يمكننا ان نساوي بين العروبة والاسلام، لان هناك عددا لا يستهان به من المسيحيين العرب. وعندما نقول "عرب" في مصطلحنا، فهم من ينطقون باللغة العربية، وان المسيحيين العرب سبقوا المسلمين العرب، اذ ان وجودهم يؤكد منذ القرن الرابع، فضلا من انهم مذكورون في اعمال الرسل.

فالعروبة اذا ليست تضاهي دينا من الاديان واللغة العربية ليست خاصة بالمسلمين. يقول الدكور طه حسين في كتاب "مستقبل الثقافة في مصر":

> "ليست اللغة العربية لغة المسلمين وحدهم، ولكنها لغة الذين يتكلمونها، مهما تختلف اديانهم. وما دام الاقباط مصريين، وما دامت اللغة العربية مُقوما من مقومات الوحدة المصرية والوطن المصري، فلا بُد من ان يتثقف بها الاقباط، كما يتثقف بها المسلمون. ولا بد من ان يتثقف بها رجال الدين من الاقباط، كما يتثقف بها رجال الدين من المسلمين".

واني افتخر بعروبتي (مؤلف المقال الاب سيمر خليل)، وبالنصارى الذين سبقوا الدعوة الاسلامية والذين جاءوا بعدها. ولكني افتخر ايضا بالاسلام كمقوم من مقومات الحضارة العربية. فلست ارفض الاسلام كاهم مقوم لحضارتنا العربية، ولكني لا أُضاهي بينه وبين العروبة. ويذكرني ذلك بما كتبه ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قبل سنة ٨٤٦، في "الرد على النصارى"، محاولا تعليل عطف العوام على النصارى. قال:

"وعطف قلوب دهماء العرب على النصارى المُلك الذي كان فيهم، والقرابة التي كانت لهم. ثم رأت عوامنـــا ان فيها مُلكا قائما. وان فيهم عربا كثيرة، وان بنات الروم ولدن لملوك الاسلام، وان في النصارى متكلمين واطباء ومنجمين".

"ومما عظمهم في قلوب العوام، وحببهم الى الطغام، ان منهم كُتّاب السلاطين، وفراشي الملوك، واطباء الاشراف، والعطارين، والصيارفة".

فلماذا اذن، نحن المسيحيون، نتسمى بشتى الاسماء ما عدا الاسم الوحيد الذي ينطبق علينا؟ لماذا نقـــول اننـــا ننتمي الى الكنيسة القبطية او المارونية او الكلدانية ولا نقول الى الكنيسة العربية؟ فكل طائفة تسمي نفسها باسم سبق الاسلام، وكأننا نحاول ان ننسى ان الاسلام موجود، وان الدعوة الاسلامية قامت في بلادنا منذ اكثر من اربعة عشر قرنا هجريا،

فالهدف الاول من احياء التراث العربي المسيحي هو اذن هدف اجتماعي ثقافي. ويقـــوم علـــى ابـــراز دور المسيحيين في بناء الحضارة العربية ولا سيما في اهم مراحلها. أي في العصر العباسي الاول، وفي مطلع القرن الثـــامن عشر والنصف الثاني من القرن التاسع عشر (عصر النهضة).

مما سيق ينتج ثلاثة امور:

الامر الاول- ضروري تمييز الحضارة العربية عن الحضارة الاسلامية

مهما كانت صعوبة هذا التمييز، فالحضارة العربية لست حضارة اسلامية، والا لسُميت "حضارة اســـلامية". كما ان الحضارة الاسلامية تتميز عن الحضارة العربية، بدليل ان المسلمين العرب قلة في الاسلام. إن الحضارة العربيـــة اسلامية مسيحية يهودية، واذ نذكر اليهود، كي لا ننسى، سعيد الفيومي المفسر، وما شاء الله الفلكي، واين يـــاقودا المتصوف، وابن جابيرول الشاعر، وموسى ابن ميمون الطبيب الفيلسوف وغيرهم من اليهود العرب. فالحضارة العربية اذن اسلامية مسيحية يهودية، وان كان الطابع الاسلامي غالبا عليها، كما ان الحضارة الاسلامية عربية وغير عربيـــة، وان كان الطابع العربي غالبا احيانا عليها. وهذا ما يرفع من شأن الحضارة العربية، لانها انفتحت على تقاليد ومفاهيم ومذاهب مختلفة؛ بخلاف نا ححدث بالحضارة الاوروبية التي انحصرت على حضارة دينية واحدة.

الامر الثاني – جعل المسيحيين العرب يعتزون بعروبتهم

ان ما نرمي اليه من خلال دراسة التراث العربي المسيحي، هو جعل المسيحيين يعتزون بعروبتهم ويفتخـــرون بتراثهم العربي. وقد يساعدهم على ذلك اكتشاف دورهم في بناء تلك الحضارة العربية، لا سيما في اهم مراحلها: في العصر العباسي الاول ببغداد، وفي مطلع القرن الثامن عشر بحلب، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عـــشر بلبنـــان ومصر. آليس اول من رفع شعار العروبة في القرن الماضي، ردا على النزعة التركية والسيطرة العثمانية، نصارى لبنان؟ الم يكن اول صوت دوى في ارجاء الوطن العربي صوت الشيخ ابراهيم اليازجي (١٨٤٧-١٩٠٦) مناديا:

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
"الله اكبر! ما هذا المنام؟ فقد
شكاكم المهد واشتـــاقتكـــم التُـــرب!
...بالله يا قومنا، هبوا لشأنكم
فكـــم تناديكم الاشعـــار والخـــطـــب
ألستم من سطوا في الارض، واقتحموا
شرقـــا وغربـــا، وعزُّوا اينمـــا ذهبـــوا

وتلك القصيدة الشهيرة التي انشدها في اوائل سنة ١٨٦٨، ولم يبلغ ٢١ سنة، انشدها في الجمعية السورية:

سلام ايها العرب الكرام   وجاد ربوع فكركم الغمام

[...] ونحن أولو المأثر من قديم   وان جحدت مآثرنا اللئام".

اجل! ان هناك من يحتكر لفظ العروبة، من المسلمين. فهل يحق للمسيحي رفض هذا اللفظ، بسبب جهل البعض او تعصُبهم؟ كيف نستطيع ان نرفض ماضينا وحاضرنا، وان ننكر كياننا وحقيقتنا؟

الامر الثالث- تكامل المسلمين والمسيحيين في بناء الحضارة العربية

كل مجتمع بشري ناهض يقوم على مُقومين: التأصل والتفتح. فالتأصل يضمن استمرارية هذا المجتمع، ويحافظ عليه خالصا من الانحراف والضياع الذاتي. والتفتح يضمن له التجدد المستمر والصلة بالعالم الخارجي. والمجمع الناهض هو الذي يجد الاتزان بين هاتين النزعتين، دون ان يُضحي بواحدة منهما. وهو ما حدث في العصر العباسي الاول، وفي عصر النهضة الحديثة في نهاية القرن التاسع عشر.

ويبدو لي، من خلال دراستي التاريخ العربي، ان للنصارى والمسلمين دورين متكاملين في بناء هذا المجتمع المرموق. فعلى النصارى ان يضمنوا عامل التفتح على الحضارات الاخرى، كما فعلوا ايام العباسيين بالنسبة للحضارة اليونانية، وكما فعلوا في القرنين السابع والثامن عشر اذ اطلعوا الغرب على حضارة الشرق (العربية والسريانية، الاسلامية والمسيحية)، وكما فعلوا في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين بالنسبة للحضارة الاوروبية، وكما يفعلون اليوم (لا سيما في لبنان) بالنسبة لعالمنا المعاصر. وعلى المسلمين ان يضمنوا عامل التأصل والحفاظ على الطابع العربي الاصيل، كما فعل المُصلحون والسلفيون دائما. ومن البديهي ان هذه المسؤولية جماعية لا فردية، أي انها "فرض كفاية" لا "فرض عين"، بمعنى انَها تترك لكل فرد مُطلق الحرية لاتباع ما يناسبه من التيارين.

وهناك شرط اساسي لنجاح هذا التكامل والتفاعل، وهو ان يتفتح كل واحد من الطرفين على نزعة الطرف الاخر. فمن نادى بالتفتح، وانكر التأصل في العروبة، ضر ولم يأت بشيء. ومن نادى بالتأصل، وانكر ضرورة التفتح على الحضارات الاخرى، ضر ولم يفد. وكلاهما من المتحيزين المتعصبين، اعاذنا الله من شرهما.

فلو فهم كل من المسلمين والمسيحيين دوره الخاص، واحترم الموقف الآخر المكمل له، لتوصلنا الى ذلك المجتمع العربي المنشود، مجتمع متأصل في تربته، متفتح على كل حسن من اين اتى. كما قال "فيلسوف العرب" ابو يوسف يعقوب الكندي (نحو ٧٩٦-٨٧٣): "ينبغي انا ان لا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق من اين اتى، وان اتى من الاجناس القاصية عنا والمباينة لنا"

الهدف الثاني: القيام بنهضة دينية

اسهم المسيحيون العرب دوما في كل نهضة اسهاما بالغا.

ونحن اليوم، في كنائسنا، بحاجة ماسة الى القيام بنهضة فكرية وروحية. وهذه النهضة لا تتم الا بالانفتاح على مطالب عصرنا من ناحية، وبالعودة الى اصولنا وجذورنا الثقافية القديمة (اليونانية والسريانية والقبطية والارمنية...)، والعربية المسيحية من ناحية اخرى. وفي الواقع اننا منفتحون على عالمنا المعاصر نسبيا، وعلى الثقافات القديمة الى حد ما، غير اننا لم نكتشف بعد ثقافتنا وتراثنا العربي المسيحي. فهو الاهم لانه الاوسع والاقرب الينا ومن شأنه ان يغذينا اليوم ويحيينا.

اجل لقد قمنا بنهضة اعلى في الشرق العربي بالعودة الى التراث السرياني والقبطي واليوناني، وهذا لا بد منه، الا ان التراث العربي ما زال مجهولا، وكأننا نحاول ان نقفز فوق الفكر العربي لنصل الى الفكر السرياني او القبطي او

اليوناني، وكأننا نحاول ان نتجاهل الاسلام والحضارة الاسلامية لننسى مشاكلنا اليومية، الا ان هذا التجاهل يفقدنا شخصيتنا. واهمالنا هذا لتراثنا العربي المسيحي (ولتراثنا العربي اجمالا) هو في غاية الخطورة. ونتيجته ان المسيحي العربي اصبح غريبا في بلده ووطنه. فمعاهدنا اللاهوتية تدرّس لاهوتا غربيا نشأ وترعرع في بيئة بعيدة عن بيئتنا. لا بل غالبا ما يدّرس هذا اللاهوت بلغة اجنبية، كأن اللغة العربية غير صالحة للتعبير عن المفاهيم اللاهوتية المسيحية، في حين انها اعرق من اللغات الاوروبية في هذا المجال. كما ان رهباننا وراهباتنا يتكونون روحيا في كتب اجنبية وكأن تراثنا العربي خال من المؤلفات الروحية النسكية والرهبانية. فنحن إزاء عملية اغتراب فكري حقة. فنحن ازاء عملية اغتراب. لماذا ننظر دائما الى الغرب عندما نحتاج الى ما يخص فكرنا وتفكرينا المسيحي؟ سبب ذلك بسيط، لأننا انقطعنا عن تراثنا فظننا ان ليس لنا تراث.

ان العودة الى تراثنا العربي المسيحي لبعثه واحيائه سوف يربط الطوائف المسيحية بعضها ببعض ويعيدها الى الاصل المشترك. فالفكر المسيحي في شرقنا اليوم مشتت ومبعثر، في حين أننا بأمس حاجة الى جمع شملنا. نحن في حاجة اليوم الى تفكير لاهوتي عربي، كما يحتاج العالم الى تفكير لاهوتي افريقي، وتفكير لاهوتي لامريكا اللاتينية. ويا حبذا لو تسهم جميع الطوائف في احياء التراث العربي المسيحي المشترك، وفي اغناء هذا التراث العربي بترجمة ما لم يترجم من التراثات القديمة (اليونانية والسريانية والارمنية والقبطية). انها لعملية تطول وتصعب. لذلك لا بد من مباشرة العمل سريعا، اذ ان مستقبل المسيحية العربية في ايدينا.